الإعجاز اللغوى فى القرآن

القرآن كلام اللّه سبحانه وتعالى، وما دام كلام اللّه فيجب أن يكون معجزا ؛ لأن قائله وهو اللّه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، ولقد أذهلت بلاغة القرآن عند نزوله العرب وهم أساطين البلاغة فى ذلك الوقت وبُهتوا لما فيه من إعجاز وبلاغة، وقال بعض العرب فى ذلك الوقت: إن أساتذة البلاغة قادرون على أن يأتوا بمثل هذا الأسلوب، ولكنهم صُرفوا من اللّه على أن يأتوا به. . وهذا القول هو إثبات بأن القرآن هو كلام اللّه سبحانه وتعالى، فلو أنه ليس كلام اللّه لما صرف اللّه العرب عنه أن يأتوا بمثله، وأثبتوا أن إعجاز القرآن الكريم موجود، ولكنهم جعلوا هذا الإعجاز بالقدرة أى إن قدرة اللّه سبحانه وتعالى قد صرفتهم عن أن يأتوا بمثله، وكان هدفهم أن ينفوا الإعجاز عن ذاتية القرآن فى أن بشراً لا يستطيع أن يأتى بمثله. وبهذا النفى الذى أرادوه أعطوا القرآن معجزة أخرى وهى معجزة القدرة.

على أن إعجاز القرآن يجب أن ننظر إليه من الدائرة الأولى التى استقبلته، وهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فالمنطقى والطبيعى مادام القرآن كلام اللّه سبحانه وتعالى يكون أبلغ الكلام، ويكون فيه معجزة، وبلاغة القرآن لها عناصر لابد أن تتوافر فيها، فالبلاغة هى: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومقتضى حال المخاطب بالذات، ولكن العجيب أن القرآن فى هذه الناحية - وهى مطابقة الكلام لمقتضى الحال - فيه معجزة كبرى، فأحوال الناس متعددة، متغيرة، وأنت حين تخاطب إنساناً إذا لم تعرف ما فى نفسه، فإنك لا تستطيع أن تصل إلى أعماقه، فمخاطبتك لرئيس الدولة مثلا أو الأمير تختلف فى أسلوبها وطريقتها عن مخاطبتك لخادمك أو من يعمل عندك، تختلف فى أسلوبها عن مخاطبتك لزوجتك وأولادك، وكل ذلك يختلف عن مخاطبتك لرئيسك فى العمل، أو لمرؤوسك إلى آخر النوعيات التى تخاطبها، بل إن الأمر يمتد أكثر من ذلك إلى الحالة النفسية التى يكون فيها المخاطب، فإنسان غاضب فى قمة غضبه لا يمكن أن تخاطبه بالأسلوب نفسه والطريقة نفسها التى تخاطب هذا الشخص ذاته بها عندما يكون فى حالة نفسية سعيدة. . هذا له كلام، وهذا له كلام آخر، مخاطبة الإنسان الغاضب لها طريقة، ومخاطبة الإنسان الذى هو فى حالة نفسية سعيدة لها طريقة أخرى، ولكن إعجاز القرآن يأتى فى أنه يحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعا، الغنى منهم والفقير،

والتعيس منهم والسعيد، الخادم منهم والسيد إنه يخاطبهم جميعا، ويخاطبهم فى حالاتهم النفسية كلها، فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه، والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اهتز فى داخل نفسه وزادت سعادته، والأمير، والخادم، والمثقف، وغير المتعلم، وهؤلاء جميعاً الذين لا يمكن أن يجتمعوا على أى مستوى، ولا أن تتوحد عقلياتهم، بحيث يكلمهم متحدث واحد، وفى الموضوع نفسه فيفهمونه، تراهم فى الصلاة، وقد اجتمعوا فى المسجد وجلسوا معاً، ويتلى القرآن فيهز قلوبهم جميعا، رغم اختلاف الثقافة والبيئة والحالة النفسية والحالة الاجتماعية وكل شىء اختلافا بينا، ومن هنا كان الإعجاز الأول فى بلاغة القرآن أنه يحيط بعلم حالات أفراد متعددين. من أجناس مختلفة، شعوب مختلفة، وثقافات مختلفة، ولغات مختلفة، وبيئات مختلفة ثم يخاطبهم بما يهز وجدانهم ومشاعرهم، ويؤثر فى عواطفهم، فإذا سألت أحدهم ما الذى أعجبك فى القرآن، فإنه غالبا لا يستطيع هو أن يصفه الوصف الكامل، أى إن القرآن يخاطب فى النفس البشرية أحاسيس وملكات لا يعلمها إلا خالقه، وهذه الملكات لو عرفناها لعرفنا لماذا نتأثر بأسلوب القرآن، ولكننا نظل نبحث ونحوم حول الآيات التى أعطت القرآن هذه البلاغة، ثم بعد ذلك لا نجد جوابا شافيا إذ إن الله سبحانه وتعالى يخاطب فى النفس البشرية ملكات هو خالقها، وأن هذه الملكات تتأثر بكلام الله سبحانه وتعالى وتهتز له بدون فارق من فوارق الدنيا، أو من الفوارق التى وضعتها الحياة الدنيا بين الناس ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار أن يستمع الناس إلى القرآن، ولو كانوا غير مؤمنين فقد كان القرآن بمخاطبته لملكات كل نفس يهزها هزا عنيفا ويجعلها تتأثر به، حتى إن الوليد بن المغيرة حين استمع إلى القرآن قال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه.

وهكذا تأثر به من دون إيمان، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم بإسلام أخته وزوجها كان ناويا الشر، وما أن استمع إلى آيات من القرآن حتى هدأت نفسه وانشرح صدره للإسلام، لماذا؟ لأن كلام الله سبحانه وتعالى قد خاطب ملكة فى نفسه، وهو فى غاية الضيق والحمق وينوى الشر، وخاطب هذه النفس. نفس عمر بن الخطاب، وهى فى هذه الحالة من الغضب الشديد بالكلام نفسه الذى يخاطب به المؤمنين. وهم فى حالة انسجام وسعادة شديدة لقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، وإذا بالآيات، الآيات نفسها التى تدخل السعادة على نفس قريبة من الله قد أدخلت الهدوء والانسجام على نفس لم تكن قد آمنت، وأصابت فى الوقت نفسه نفوسا سعيدة وهى نفوس المؤمنين فجعلتها تزداد سعادة، وتنشرح للإسلام ونفسا غاضبة تنوى الشر لم تصل إلى الإيمان بعد فهدأتها وجعلتها سعيدة، وانشرح الصدر للإيمان، مع أن الكلام واحد،

وفرق كبير بين حالة المخاطب فى الحالتين، ومع ذلك - ولأن القائل هو الله سبحانه وتعالى، وهو العالم بالنفس البشرية التى خلقها - فقد كان كلامه مناسبا لكل حالات المخاطب مهما اختلفت هذه الحالات، مع أنه الكلام نفسه.

إذن.. فهناك فى النفس ملكات خفية عن الإنسان، لا يعرف سرها إلا الله سبحانه وتعالى، ويقوم الله بمخاطبة البشر على اختلاف أحوالهم، فتهتز هذه الملكات، وتتأثر وينسجم الإنسان معها بدون أن يعرف السر.

obeikandl.com

من بلاغة القرآن

تحدثنا عن أول شروط البلاغة وهو: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ونجد أن القرآن فى هذه الناحية قد تخطى كل شروط البلاغة فى أنه مطابق لكل أحوال البشر، على اختلاف ظروفهم، ولذلك تحير الكفار فى هذا الإعجاز فى مخاطبة البشر جميعا، وفى هذا الإعجاز الذى تهتز له قلوب كل من يسمعونه ويفهمونه فقالوا: ساحر سحر الناس بكلامه؛ لأنه لا يمكن لبشر عادى أيًا كان أن يأتى بكلام يطابق كل الأحوال ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر، وقلنا له أنظم قصيدة، أو عد كلاما لتلقيه أمام الناس، فهو لا يستطيع أن يعد كلاما يقوله أمام مجموعة من المتبحرين فى العلم، وفى الوقت نفسه يقوله أمام مجموعة من غير المتعلمين، ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال ولا أن يعد قصيدة يمدح بها أميرا. . ثم يقول القصيدة نفسها فى خادم الأمير، ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال، ولكنهم وجدوا أن القرآن يخاطب المتعلم وغير المتعلم والعبد والسيد، والرجل العادى والحاكم، ومن هنا كانت المطابقة معجزة، فقالوا ساحر، فليأتوا بسحر مثله، ثم هل للمسحور خيار أو إرادة مع الساحر؟ إذا كان محمد عليه السلام قد سحر من آمن به فلماذا لم يسحركم أنتم؟ إن بقاءكم على الكفر ومحاربة الدين، دليل على أنه ليس ساحراً وإلا لو كان ساحرا لكان قد سحركم جميعا، ولم يسلب بعض الناس إرادتهم، ويترك البعض الآخر على إرادته.

ثم انتقلوا إلى نقطة أخرى، قالوا: مفترٍ، نقول لهم: ما دمتم قد فهمتم أنه مفترٍ فافتروا أنتم إن كنتم تستطيعون، بل إنكم أنتم أيها الكفار أقدر منه على الافتراء فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس له دراية بفن الكلام والخطب والشعر والأدب، بل إنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يقول الشعر، أما أنتم فأساتذة الكلام والبلاغة، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يقل شعراً أو أدباً قد قال هذا الكلام وأنتم تقولون: إنه مفترٍ، فوسائل الافتراء تملكون أسبابها أكثر من محمد صلى الله عليه وسلم، عندكم الشعراء والأدباء، فافتروا مثله، وأداة الافتراء موجودة تستطيعون أن تستغلوها.

ولقد أراد القرآن أن يرد على هذا الإعجاز، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة].

حتى الرد إعجاز، فالشعر مفهوم أنه كلام موزون مقفى يعرفه الناس جميعا، ومن هنا فكونكم تقولون: إن هذا شعر، فهذا دليل على أنكم تكفرون، لماذا؟ لأنكم تعرفون

الشعر معرفة جيدة، وهذا ليس شعرا بأوزانه وقوافيه ؛ ولذلك عندما تقولون أيها الكفار: إنه قول شاعر، فما تقولونه ليس عن جهل ولكن عن كفر بالله سبحانه وتعالى ؛ لأنكم تعرفون الشعر جيدا، ثم قال الله سبحانه وتعالى، وعندما تقولون: إنه قول كاهن وقول الكاهن كلام فيه سجع، ويمكن أن يختلط، ولكن قول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات ولا يمكن أن يكون فيه كل هذا الإعجاز، كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت والزمن ومن هنا فإنه كبشر ينسى ويأتى بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن، ولذلك عندما ردّ الله سبحانه وتعالى على قولهم إنه كاهن، كان الرد بكلمة: ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ ؛ لأنه من الواضح أن هذا ليس شعرا، ومن هنا فإنه يمكن أن يختلط بكلام الكهان، والفرق بين النثر والشعر فى هذه الحالة هو الإعجاز فى مخاطبة ملكات النفس البشرية، وثانياً طول الزمن الذى يجعل الكاهن ينسى ما قال، ومن هنا قال الله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ لأن البشر معرضون أن ينسوا ما يقولون، فاستخدم كلمة: ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾، ولم يستخدم كلمة يكفرون، أو الكفر، استخدمها فى الحالة الأولى عندما قالوا قول شاعر ؛ لأن الشعر له قواعد معروفة.

نأتى بعد ذلك إلى إعجاز آخر فى القرآن، إنك إذا قرأت أى كلام منثور، ثم جاء الكاتب فاستشهد ببيت من الشعر، تشعر ساعة أن ينتقل الكاتب أو المتكلم من النثر إلى الشعر أنك انتقلت من طبيعة كلام إلى كلام آخر، ثم نترك بيت الشعر وتعود إلى النثر فتعرف أيضا أنك انتقلت من كلام إلى آخر نأتى إلى رسالة ابن زيدون التى تعتبر القمة فى ذلك الوقت: ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب، له الحمد له على اهتباله، ولا عتب عليه فى إغفاله.

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا فأفعاله اللّاتى سررن ألوف

وهنا نلتفت فنجد أننا انتقلنا من النثر إلى الشعر فى كلام فى غاية الانسجام، ولكننا نعرف الفرق.

نأتى إلى القرآن الكريم، كلام الله، نقرأ فيه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ ﴾ [الحجر].

أنت قرأت هذا النص القرآنى ولم تشعر أنك قد انتقلت من النثر إلى الشعر ثم إلى النثر مرة أخرى من دون أن تدرى، أى: إنك انتقلت من شىء منثور إلى شىء منظوم، ثم من شىء منظوم إلى شىء منثور، وأتحدى أن يأتى بها إنسان، عندما تنظر إلى الكلام الذى قيل: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ نجد فاعلات مستفعل فاعلات، بيت من الشعر، ومع ذلك ما أحست أذنى أننى انتقلت من النثر إلى الشعر، وأننى انتقلت بعده من كلام منظوم إلى كلام منثور.

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ . . . ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف].

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ﴾ مستفعل فاعل، مستفعل فاعل هل شعرت أنك انتقلت من كلام منثور. . وكذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، مفاعيل، مفاعيل، مفاعيل، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]، في كل من هذه الآيات لم تشعر أنك انتقلت من شعر إلى نثر؛ لأنه لا توجد هناك فجوة كلامية، والقرآن نظم فريد، لا تستطيع أن تقول إنه نثر ولا شعر ولا سجع، وإنما هو كلام فريد يتناسب مع قول القائل سبحانه وتعالى إذن. . فبلاغة القرآن في مطابقته للحال، حال جميع المخاطبين، وبلاغته في الانتقال من الشعر إلى النثر، ومن النثر إلى الشعر من دون أن تحس، وبلاغته في تحريك النفس البشرية كل نفس بشرية، وبلاغته في أن الله تحدى أساطين البلاغة، بل تحدى الإنس والجن في أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا، وأمام هذا العجز لم يستطيعوا المواجهة التي يريدون أن يقوموا بها ضد الدين الجديد، لم يستطيعوا أن يحولوا هذه المواجهة إلى ذات المعجزة وهي القرآن الكريم؛ لأن التحدي كان أقوى منهم جميعا، فإذا بهم يصبون ذلك إلى من جاءت على يديه المعجزة وهو محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وهنا مربط الفرس، الحقد والغيرة لم يستطيعا أن يواجها القرآن، فقالوا: لماذا اختار الله محمدا لينزل عليه القرآن، كأنما آفة القرآن أنه نزل على محمد عليه السلام، وليست آفته أنه صراع بين حق ينادي به القرآن. . وباطل هم مقيمون عليه، والذي يقيم على الباطل يريد الباطل أن يستمر؛ لأن الباطل هو الذي يعطيه القوة والقدرة والسيادة وهو يريد لهذا الباطل أن يبقى لتبقى له السيادة، فيأتي الحق ويغلبه، ويحس أن ملكه سيزول فيقول: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]

إذن. . فهو يريد العزة مع الباطل، أما إذا كان زوال الملك سيأتي مع الحق فهو لا يريده ويطالب الله، أو يطلب من الله أن يمطر عليه حجارة من السماء.

إذن. . فهو يكره الحق لذاته لأنه سيسلبه سلطانه وقوته، ويريد الباطل أن يستمر؛ ليبقى سيدا ولو بغير الحق، ثم يقول الكفار بعد ذلك: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧].

إذن. . فالمانع من الإيمان ليس أنه غير الحق، لكن المانع له أنه سيزيل عنكم السيادة التي أعطاها لكم الباطل، وسيتجرأ عليكم الناس وتتخطفون من أرضكم، وكان

هذا هو العناد بعد أن فشلوا فى تحدى معجزة القرآن اللغوية، والرد عليها.

الكفار والمشركون فى تحديهم ووقوفهم موقف المعارضة، أثبتوا أنهم فى داخل نفوسهم يعتقدون أن القرآن هو الحق ؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتحدوا إعجازه، الإعجاز أولا: فى النبى صلى الله عليه وسلم المختار للدعوة، والإعجاز ثانيا: فى استخدام نفس الحروف والألفاظ التى يستخدمها البشر، ولنتحدث عن هاتين النقطتين بشىء من التفصيل.

الإعجاز الأول أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقرأ ولم يكتب طول حياته، ولم يتعلم القراءة والكتابة، ولم يدرس الأدب ولا الشعر ولا النثر، ولا علم الكلام، إلى غير ذلك، ومع هذا فقد جاء بكلام غاية فى الإعجاز، كلام لا يستطيع أولئك الذين درسوا البلاغة وبرعوا فيها أن يأتوا به، أو يأتوا بسورة من مثله، بل الإعجاز يتجلى أكثر فى أن الله سبحانه وتعالى أثبت فى القرآن أن هذا الكلام ليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو كلام لا يمكن أن يأتى به أمى، فالإنسان الأمى قد ينطق الكلمات وقد ينظم الشعر والنثر والسجع، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يأتى بالحروف التى تتكون منها الكلمات، فإذا أنت ذهبت إلى إنسان لم يعرف فى حياته القراءة والكتابة، وسألته: ما هذا؟ يقول لك: هذا كوب مثلا، فإذا قلت: ما هى الحروف التى تتكون منها كلمة كوب؟ لم يعرف ؛ لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة، وإذا بالله سبحانه وتعالى يأتى بالحروف التى لا يعرف مسمياتها رجل أمى، ويجعل النبى صلى الله عليه وسلم ينطق بها ويجعلها فى القرآن فيقول: ﴿الٓمٓ، كٓهيعٓصٓ﴾ إمعانا فى الإعجاز والتحدى، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبى أمى لا يمكن أن يعرف أسماء هذه الحروف أبدا ولكنه جاء بأسماء هذه الحروف إثباتا بأن هذا ليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لو كان كلام محمد - وهو رجل لم يقرأ ولم يكتب فى حياته - لكان من المستحيل أن يعرف أسماء الحروف التى لا يعرفها ولا يستطيع أن ينطق بها إلا من تعلم القراءة والكتابة.

نأتى بعد ذلك إلى النقطة الثانية وهى استخدام نفس الحروف والألفاظ التى يستخدمها البشر فى أسلوب ومعان يعجز عنها البشر، وهذا إعجاز وتحد ؛ لأنك حتى تريد أن تدلل على مهارة الصانع فى أى شىء، فأنت لا تأتى بمادة مختلفة، ثم تقارن بين صانع وآخر أنت إذا أردت مثلا أن تعرف من هو أمهر الناس فى صناعة النسيج لا تأتى بخامة من حرير، وخامة من قطن، وخامة من خيش، ثم تعطيها لثلاثة صناع وتقارن بين إنتاجهم ؛ لأنك فى هذه الحالة لا تستطيع أبداً أن تقول إن هذه أحسن من هذه ؛ لأن نسيج الحرير لابد أن يكون أحسن ؛ نظراً لأن الخامة التى صنع منها الثوب هى أفضل الخامات.

ولكن المهارة تكون فى استخدام مادة واحدة، نعطى الكل قطنا أو حريرا أو صوفا ولذلك تكون العناصر المكونة للشىء واحدة، أو متساوية، فلا يكون لها دخل فى الجودة وتكون الجودة أو المهارة للصانع نفسه، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أولاً أن القرآن لم

يتميز ببلاغة إلا لأن قائله هو اللّه سبحانه وتعالى، مادته ليست من جنس أعلى من مادة البشر بل هى من كلام البشر، الحروف هى، والكلمات التى تنطقون بها هى الكلمات نفسها المستخدمة، وجاء بكلمات الحروف كأسماء يستطيع أن ينطق بها الجاهل والمتعلم ومسميات يستطيع أن ينطق بها المتعلم وحده، ثم بعد ذلك قدم المعجزة وتحدى الحروف الحروف نفسها، والكلمات الكلمات نفسها، ولكن الذى أفحمهم هو اللّه سبحانه وتعالى فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، وهذا دليل على أن الصانع هو المختلف، ومن هنا كان التحدى عظيما ؛ لأن الفارق هو بين قدرة اللّه سبحانه وتعالى، وبين قدرة البشر.

وعندنا فى البلاغة عندما نقول: إن هذا الشىء بليغ، ونقول: إن العرب قد اشتهروا بالبلاغة والفصاحة، يعنى أن البلاغة هى وضع الكلام مناسباً للمقام الذى يقال فيه ومستوفيا لأركان سلامته، وأركان الكلام هى ألا يكون بين الحروف تنافر، مثل أن تكون الكلمة هيع هيع، وإنما تكون الكلمات منسجمة، ولا تأتى مخالفة لقانون اللغة ولا تكون غريبة على الأذن، عندما تستوفى الكلمة هذه الشروط، توضع فى جملة يشترط أن تكون منسجمة مع الكلمة الأخرى، خاضعة لقواعد اللغة، وليس فيها تعقيد، إذن.. عندما جاءوا ليعرفوا البلاغة قالوا: هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.. تراكيب منسجمة ومخاطبة البشر مطابقة لمقتضى عقلهم، ومن هنا كانت بلاغة البشر على قدر علمهم بمقتضى حال المخاطب، ومعنى ذلك أنه لابد أن يكون هناك عالم، وعلمنا كبشر بأحوال المخاطبين محدود، ولكن علم اللّه سبحانه وتعالى بلا حدود، ومن هنا فإن بلاغة القرآن الكريم فى أنه معجز فى مخاطبته للبشر جميعاً معجز فى بلاغته، ومطابقته لمقتضى مخاطبته للبشر جميعا يخاطب ملكات فى النفس لا ندرى ولا نعرف سرها، مكون من الحروف نفسها والكلمات التى يستخدمها العامى والمتعلم، تحدى به اللّه البشر أن يأتوا بسورة مثله، ثم تحدى الإنس والجان، وهم الذين لهم اختيار، ووضع اللّه فيه أسماء الحروف كإعجاز لأن الموحى إليه - وهو النبى صلى اللّه عليه وسلم - أمى لم يقرأ، ولا يكتب، على أن الإعجاز فى القرآن لا ينتهى عند هذا الحد وإنما يمتد إلى دقة اللفظ والتعبير التى يعجز عنها البشر.

إذا أردنا أن نتحدث عن معجزة القرآن وبلاغته، فإننا لابد أن نتناول دقة اللفظ، أو دقة التعبير فى القرآن الكريم، وكلام اللّه سبحانه وتعالى يجب أن يكون فى غاية الدقة بحيث يعبر عن الشىء تعبيرا كاملا، فلا تجد حرفا زائدا بلا معنى، ولا كلمة مترادفة إلى آخر ما يقال عن القرآن الكريم، والحقيقة أن المعجزة فى القرآن تجدها فى حرف فيقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل ٦٩]. ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] . ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٤٢].

وتقف أنت عند هذه الآية الكريمة وتسأل، لماذا لم يقل اللّه: قل سيروا على

الأرض هل أنا أسير فى الأرض، أو على الأرض، حسب مفهوم الناس جميعاً، فأنا أسير على الأرض ولكننا نجد أن الله قد استخدم حرف ﴿ فِى ﴾، ولم يستخدم حرف «على»، يقول: ﴿ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، فـ ﴿ فِى ﴾ تقتضى الظرفية، والمعنى يتسع ؛ لأن الأرض ظرف المشى، ومن هنا فإن التعبير جائز، ولكن ليس فى القرآن كلمة جائز، فالتعبير بقدر المعنى تماما، والحرف الواحد يغير المعنى وله هدف، وقد تم تغييره لحكمة، لكن ماهى حكمة استخدام حرف ﴿ فِى ﴾ بدلا من حرف «على»؟

عندما تقدّم العلم وتفتّح وكشف الله أسرار الكون، عرفنا أن الأرض ليست بمدلولها المادى فقط، أى إنها ليست الماء والأرض، أو الكرة الأرضية وحدها، ولكن الأرض هى بغلافها الجوى، فالغلاف الجوى جزء من الأرض يدور معها ويلازمها، ومكمل للحياة عليها، وبدونه تصبح الحياة غير ممكنة على الأرض، وسكان الأرض يستخدمون الخواص التى وضعها الله فى الغلاف الجوى فى اكتشافاتهم العلمية، والدليل على ذلك أنك إذا ركبت الطائرة فإنها ترتفع بك ٣٠ ألف قدم مثلا عن سطح الأرض، ومع ذلك فإنك لا تقول: إنك خرجت من الأرض، ولكنك تقول أنت تطير فى الأرض، متى تخرج من الأرض علميا وحقيقة، هو عندما تخرج من الغلاف الجوى للكرة الأرضية ومادمت أنت فى الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية، فأنت فى الأرض ولست خارج الأرض فإذا خرجت من الغلاف الجوى فأنت فى هذه اللحظة التى تخرج فيها خارج الأرض، الغلاف الجوى متمم للأرض.. وجزء منها، ويدور معها.

نعود إلى الآية الكريمة ونقول: لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى لفظ ﴿ فِى ﴾، ولم يستخدم لفظ على؟ لأنك فى الحقيقة تسير فى الأرض، وليس على الأرض، هذه حقيقة علمية لم يكن يدركها العالم وقت نزول القرآن، ولكن الله سبحانه وتعالى وهو القائل، وهو الخالق يعرف أسرار كونه، يعلم أن الإنسان يسير فى الأرض، إنه يسير على سطح الأرض ولكنه لا يسير على الأرض، بل يسير فيها بين الغلاف الجوى والسطح، ومن هنا فهو يسير فى الأرض، أى فى وسطها بين غلافها الجوى الذى هو جزء منها، وبين اليابسة التى هى جزء آخر، وهكذا نجد دقة التعبير فى القرآن فى حرف ونجد معجزة القرآن فى حرف.

ننتقل بعد ذلك إلى مثل آخر لنعرف مدى بلاغة القرآن فى اختيار اللفظ الذى يناسب المعنى تماماً، وليس فيه تجاوز ولا مترادفات، يقول الله تعالى على لسان لقمان وهو يوصى ابنه: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

ثم نجد آية ثانية: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

زادت هنا اللام، أى إنسان يقول إن زيادة اللام هنا للتأكيد، كلمة مترادفة، لا يتوقف عندها كثيرا، ولكن المسلم حين يدقق فى معانى القرآن الكريم، يجد أن كل حرف

فى القرآن الكريم قد تم وضعه بحكمة بالغة، وأنه لا شىء اسمه مترادفات، وإنما لكل لفظ معنى يؤديه، ولا يؤديه اللفظ الآخر، رغم التشابه، فإذا دققنا فى المعنى نجد ما يلى: فى الآية الأولى يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ والأمر الذى يصيب الإنسان نوعان: نوع للإنسان فيه غريم، ونوع لا يوجد فيه غريم. عندما أمرض ليس لى غريم وإذا أصابنى مكروه بقضاء وقدر، كأن أكون سائرا فى الطريق فيسقط شىء فوقى ليس هناك غريم، إنما عندما أسير فى الشارع ويعتدى على إنسان بالضرب، إذن.. هناك غريم.

فهناك نوعان من الصبر، صبر النفس فيما ليس لى فيه غريم وهذا هين؛ لأنه ليس هناك إنسان أنفعل عليه، ولا أملك أن أرد على شىء قد حدث لى، فما حدث هو قضاء الله وأنا ليس أمامى إلا الصبر.. هذا نوع من الصبر لا يحتاج إلى طاقة كبيرة ليمارسه الإنسان لأنه ليس هناك غريم أستطيع أن أرد له ما أصابنى.

والنوع الثانى من الصبر، محتاج إلى جلد أكبر، ومحتاج إلى قوة إرادة.. وهذا النوع هو الذى يوجد لى فيه غريم أستطيع أن أنتقم منه، وأستطيع أن أصفح وأغفر.

إذن.. عندما يتحدث الله سبحانه وتعالى عن الصبر بنوعيه يعطى لكل نوع ما يستحقه من وصف للنفس البشرية، فهو عندما يتحدث عن الصبر على شىء ليس لى فيه غريم، يقول: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

وعندما يتحدث عن الصبر الذى لى فيه غريم بحيث أستطيع أن أنتقم، وأكون منفعلا إذا لم أنتقم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

هنا اللام للتأكيد فى نوع الصبر، وما يحتاج إليه من جلد وضبط للنفس، ففى الحالة الأولى حينما لا تستطيع أن تعاقب بمثل ما عوقبت به، يكون الصبر من عزم الأمور ولكن فى الحالة الثانية فإنك تستطيع أن تنتقم من غريمك، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾.

وهنا يظهر من كلمة غفر أن هناك غريما يمكن الانتقام منه، وأن هذا الغريم قد غفر الإنسان له، ومن هنا لابد أن تأتى اللام للتأكيد، لتؤكد المعنى، وتؤكد الفرق بين عزم الأمور فى الحالة الأولى، وعزم الأمور فى الحالة الثانية، وهكذا نرى أن حرفا واحدا فى القرآن الكريم يصنع معجزة.

على أن المعجزة لا تأتى فى حرف فقط، بل تأتى أيضا فى مخاطبة القرآن للملكات البشرية المستورة، الشىء الذى ينبئ عن علم تام بخفايا النفس البشرية، وملكاتها التى نعرفها، والتى نجهلها، فمثلا عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين من أن يطوفوا بالبيت الحرام، ساعة ما يلقى هذا الأمر فما الذى يهتز فى المسلم نفسه الذى يستمع؛ أى الملكات تهتز؟ ملكة الاقتصاد فى النفس على أساس أن هؤلاء المشركين

يأتون من كل الدول، المدن، القرى، والبلاد المحيطة بمكة، وهذه لم يصلها الإسلام بعد، ومعنى منعهم من الحضور، منع الخير الذى يأتى معهم، فهم يأتون بالبضائع وينفقون، ويحدثون رواجا اقتصاديا، هنا تهتز ملكة الاقتصاد فى النفس، والله سبحانه وتعالى وهو خالق للنفس البشرية، يعلم هذا، فعندما تنزل هذه الآية، لا تقتصر على مخاطبة ناحية افعل ولا تفعل كأوامر ونواهٍ، وطريقٍ ومنهج للحياة، ولكن تتجلّى فيها رحمة الله، فتخاطب الآية الملكة النفسية التى تتأثر بالاقتصاد، فعندما يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨].

يخاطب فى الآية نفسها الملكة الاقتصادية، ويخاطب الملكة الاقتصادية قبل أن يُثار السؤال فى أن ذلك سيؤدى إلى ضيق الرزق، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾.

الآية نفسها، والمعنى هنا أنه حذار أن تفتنكم الملكة الاقتصادية والخوف من ضيق الرزق عما أقول لكم فى أفعل ولا تفعل، ولا تخافوا من الفقر، فإن الله سبحانه وتعالى هو الغنى الحميد، وسيغنيكم من فضله.

إن هذا المعنى، معنى الملكة الاقتصادية، وتأثيرها داخل النفس يتكرر الآن فى أشياء كثيرة تحدث فى الدنيا، والله سبحانه وتعالى حين يقول لك: افعل كذا، أو يقول لك لا تتعامل مع كذا، يأتى بعد ذلك مباشرة السؤال إلى ذهنك: والرزق الذى أحصل عليه من هذا التعامل، من أين آتى به؟ وهنا يقول الله سبحانه وتعالى: إننى أرزقك من طريقى ومادام بيدى أنا فإننى سأيسر سبيلاً آخر للرزق، ولا تخش الفقر، ولا تخف من أن رزقك سيناله غيرك.

والله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم يخاطب دائما ملكات النفس البشرية، ويرد عليها ببلاغة وبدقة متناهيتين، بحيث تجد أنه عندما تتغير كلمة واحدة من الكلمات فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطى معنى جديدا، أو يفهم شيئا جديدا، وهذه الدقة الهائلة، تجدها موجودة بكثرة فى القرآن الكريم، مثلا إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ ﴾ [الشعراء].

هنا نتوقف لنسأل: لماذا لم يقل إبراهيم عليه السلام هو الذى خلقنى فهو يهدينى وقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾، لأن الخلق ليس محتاجا إلى تأكيد، فليس هناك إنسان مهما كبر - وعظم وحكم الدنيا كلها، يستطيع أن يدعى أنه يخلق إنسانا، وإلا فسنطلب منه أن يفعل ذلك وسيعجز، إذن: فالخلق لم يدعه أحد، ولذلك فإنه غير محتاج إلى تأكيد، إنما الهداية هناك مئات الألوف ممن يدعون أنهم يهدون الناس بعضهم وضع مناهج مع الدين وبعضهم وضع مناهج ضد الدين، والمهم أنهم جميعا يدّعون أنهم يريدون هداية البشر وكل إنسان يضع نظاما يخضع لأمره وهواه، ويدعى أنه الهداية، ومن هنا كان

لابد من التأكيد على أن الهدى من الله وحده، وأن الحق والطريق المستقيم من الله وحده، وهكذا نرى أن الضمير هنا كان لابد من وضعه وأن الضمير فى الجزء الأول من الآية لم يكن هناك حاجة للتذكير به، فالخلق صفة من صفات الله، لا ينازعه فيها أحد، وهنا تأتى كلمة: ﴿هُوَ﴾ ضرورة، ثم تأتى بعد ذلك فى: ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾ [الشعراء] ؛ لأن الإنسان يكسب ثمن الطعام والشراب، فهناك ادعاءات كثيرة فى الرزق، ومن هنا فإن هذه الادعاءات محتاجة إلى أن يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾

ويقول أيضا: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ذلك أننا بين الطبيب والدواء ننسى إرادة الله سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك نأتى إلى عدم وجود كلمة: «هو»، فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٨١].

ولم يقل: والذى ﴿هُوَ﴾ يميتنى ثم ﴿هُوَ﴾ يحيين ؛ لأنه لا أحد يستطيع أن ينازع الله فى مسألة الموت والحياة، ولا يدّعيها لنفسه، ومن هنا كان التأكيد غير لازم لمقتضى الحال.

وهكذا نرى فى هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى يأتى بالضمير فيضعه مرة، ويحذفه مرة ؛ لأن المقام يقتضى ذلك، ولأن دقة التعبير فى القرآن الكريم تجعل الكلمة الواحدة توضع فى المكان المناسب لتعبر عن المعنى الدقيق البالغ الدقة، سواء من ناحية الإضافة أو الحذف، أو اختيار الكلمات، ولو أن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة: ﴿هُوَ﴾ فى كل الآيات التى ذكرناها، أو حذف كلمة: «هو» من كل الآيات التى ذكرناها لما تنبه لذلك معظم الناس ولمضى الحديث على أساس أنه كلام بشر، ولكنه كلام الله تعالى.

ونرى أن الدقة البالغة فى التعبير تقتضى التغيير فى كل حرف يتم، وفى كل كلمة تقال بل فى الكلمة نفسها، مثلاً كلمة: سقيناهم، وأسقيناهم، سقيناهم متعدي وأسقيناهم متعدي ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وفى آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ [الجن: ١٦].

لماذا لم يقل لو استقاموا على الطريقة لسقيناهم؟ مع أن سقى وأسقى بمعنى واحد واللفظان يتعديان لمفعولين، ما هو الخلاف، هل هى مجرد مترادفات ؛ أم ألفاظ تتغير حتى لا تتكرر الألفاظ نفسها؟ أبداً، كل تغيير له حكمة، كل تغيير يحدد معنىً مُعينا لا يُحدّده غيره ونحن حين نأتى ونتابع القرآن الكريم نجد أن سقى تُستخدم فى الأمر الذى ليس فيه كلفة ولا علاج، وأسقيناهم فى الأمر الذى فيه كلفة وعلاج، هذا فى أمور الدنيا: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

أمر فيه كلفة، فيه جهد، نحن أوجدنا لهم الماء وجعلناه متوافرا لديهم بلا تعب ولا

نصب فهو موجود فى البئر، ولكن لكى تتم السقيا يجب أن يذهب الإنسان إلى البئر ليشرب، أو أن يحضر له إنسان آخر الماء، إذن هنا فى أسقيناهم، رغم أن الماء موجود بقدرة الله سبحانه وتعالى ومتوافر بقدرة الله سبحانه وتعالى، إلا أن عملية السقيا فيها عمل من الإنسان، أو جزء من العمل، فإذا أتينا إلى كلمة: سقاهم، نجد الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾.

هذا فى الجنة، بمجرد الخاطر ليس فيه كلفة، إذا أحسست بالعطش وجدت الماء أمامك يصل إلى فمك، هنا فى الآخرة لا يوجد أى جهد ولا كلفة، أى كلفة للإنسان فى أى عمل يعمله، فكل شىء فى الجنة متى تمنّاه الإنسان وجده حاضرا أمامه، إذن فقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾.

معناه أن السقيا هنا فى الجنة ليس فيها أى جهد، ولا أى كلفة، ولذلك فرق الله سبحانه وتعالى بين السقيين، رغم أنه هو الذى أوجد الماء أو ما يتم شربه فى الحالتين.

وإذا مضينا نقرأ فى القرآن الكريم، نجد الله سبحانه وتعالى قد استخدم لفظا معينا، وفى حالة مماثلة لم يأت باللفظ نفسه حتى إنك حين تسمع الآية تظن أنه سيأتى باللفظ الأول ولكنه لا يأتى به، مثلا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

ويقول تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]

لماذا الاختلاف فى الكلمة، مع أن العلم والعقل واحد؟ أقول: إن هناك فرقا كبيرا يحتم فى مرة استخدام لفظ ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾، وفى مرة استخدام لفظ ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾.

نأتى إلى نص الآيتين الكريمتين فى سورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [البقرة].

والآية الثانية فى سورة المائدة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [المائدة].

ولكن عندما يأتى المستشرقون يقولون: إن اللفظين مترادفان، فالعلم والعقل، والعقل والعلم شىء واحد، والعاقل من علم أو من استطاع أن يعقل العلم، ويقولون: إن هذه مترادفات، إلى آخر ما يقال فى هذا الموضوع. نقول لهم: إنكم حينما تقولون هذا الكلام: فأنتم لا تعرفون شيئا عن بلاغة القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى لا يستخدم

لفظين لأداء المعنى نفسه ولكن كل لفظ له معناه، كل لفظ يعبر بدقة عن المعنى المراد منه، فالله سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾، معناها أنهم لا يفهمون شيئا، أى: ليس لهم عقول تفكر، لا يتدبرون فى أمر هذا الكون، إنهم لا يستخدمون عقولهم، ولو استخدموها وفكروا وتأملوا قليلا لوصلوا إلى أن اللّه سبحانه وتعالى هو الخالق البارئ وأن هذا الكون بدقته وبديع صُنْعِه لا يمكن إلا أن يكون من خلق اللّه سبحانه وتعالى هذه فى كلمة: ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾، إذن.. هو هنا نفى عنهم التدبر والتعقل فى أمور العبادة وفى أمور هذا الكون.

ولكن عندما يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فهو قد نفى عنهم التعقل والعلم معا بمعنى أننى قد أكون باحثا فى هذا الكون، قد أكون متأملا فيه عاقلا لما يدور، فأفكر بعقلى، وأصل إلى أشياء، هذا هو الإنسان الذى يعقل.

أما قوله: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فهو يريد أن يقول لنا: إنهم بجانب عدم تدبرهم فى هذا الكون، وأنهم لا يعقلون الآيات الموجودة فيه، هم أيضاً لا يعقلون ما علمه غيرهم من العلم، فالذى لا يعقل لا يتدبر ولا يفكر فى آيات الكون، أما الذى لا يعلم فهو لا يفكر بعقله، ولا يعلم ما عقله غيره، إنه ليس لديه علم، ولا علم له من نتاج عقل غيره، فالعلم أوسع من التعقل ذلك أن العلم قد يكون عِلْمَ غيري دونه أو كتبه وسجله، وأكون أنا فى هذه الحالة قد أخذت هذا العلم وقرأته.. فكأنى علمت ما عقله غيرى، وهذا يحدث لنا كل يوم فنحن حين نقرأ كتابا جديدا نعقل ما عَلِمَه غيرُنا، وحين نذهب إلى الجامعة ندرس ما علمه الأساتذة وكبار المفكرين، فأنا لم أعقل الجاذبية مثلا، ولم أعقل قوانين الفضاء؛ لأننى لم أشتغل بها لكى أصل إليها بعقلى، ولكنى علمتها عن طريق عالم فى الفضاء أو فى الجاذبية، وصل بعقله وفكره إليها ثم قرأت أنا ما علمه هو، فأنا هنا علمت ما عقله غيرى، فالله سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فى الآية الأولى، أى: إنهم لا يتدبرون فى الكون مستخدمين عقولهم؛ لأنهم يقولون: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾.

ومن هنا فإن اللّه رد عليهم: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

ولذلك يصفهم اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

أى: لا يسمعون ولايرون ولا يتحدثون بآيات اللّه سبحانه وتعالى، وهذا هو السبب فى أنهم لا يعقلونها، ولكن حين يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، تأتى ردا على كافرين قالوا: ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾.

هنا هم قد نطقوا، قالوا: لا نريد شيئا، ولا نريد علما، يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا فرد اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

أى: إنهم لا يعلمون علما بعقلهم، ويرفضون العلم الذى وصل إليه غيرهم، وهكذا نرى الفرق بين كلمة: ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، وكلمة: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى تشهد على بلاغة القرآن الكريم، ودقة التعبير فيه والقرآن الكريم مليء بإعجاز لا ينتهى أبداً، مثلا بعض الآيات فى القرآن الكريم يقول العقل السطحى: إن معناها واحد، ويتساءل لماذا غيرّ الله سبحانه وتعالى الألفاظ؟ ولكن المتدبر فى القرآن الكريم لا يمكن أن يقول: إنها توارد ألفاظ، فليس هناك شىء فى القرآن الكريم اسمه توارد ألفاظ، ولكن هناك دقة بالغة فى التعبير، واختيار اللفظ.

فالنظر إلى المعنى الذى قد لا يفطن إليه كثير من الناس، مثلا فإن وأد البنات كان موجودا فى الجاهلية، ثم جاء الإسلام ليمنع هذا، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

الكلام هنا عن الفقر وقتل الأولاد، نأتى بعد ذلك إلى الآية الثانية: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الاسراء: ٣١].

والآية الأولى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

والآية الثانية: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾.

سنسأل: ما هو الخلاف؟ الآية الأولى تقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ﴾، أى: إن الفقر موجود فعلا، «الإملاق» وهو الفقر موجود فعلا، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾، مادام الفقر موجودا، يكون الإنسان مشغولا برزقه أولا، يبحث عن طعامه هو أولا ثم بعد ذلك يبحث عن طعام من سيأتى به من أولاد، هَمُّ الإنسان هنا هو البحث عن طعامه وطعام زوجته، ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أى إنه يطمئنه أولا على رزقه الذى هو شُغْله الشاغل، ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق أولاده فيقول له: أنت فقير ومشغول برزقك.. وتخشى أن تأتيك الأولاد؛ لأنك لا تملك ما تطعمهم به، إننى أرزقك وأرزقهم، أنت لك رزقك وهم لهم أرزاقهم لن يأخذوا من رزقك شيئا، ولكن الآية الثانية تخاطب نوعا آخر من الناس، الآية الثانية تقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

هنا الإنسان ليس مشغولا برزقه لا يخشى الفقر، عنده ما يكفيه، ولكنه يخاف إن رزق بطفل أن يصاب بالفقر، أن يأخذ هذا الطفل جزءا من الرزق، ويصبح الرزق لا يكفيه ويكفى طفله، ومن هنا فإن هذا الإنسان يخاف إنجاب الأطفال، لماذا؟ لأنه يخشى أن يأخذوا من رزقه شيئا، فيصبح فقيرا، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾.

الآية الأولى: كان الشغل الشاغل للإنسان هو رزقه، فخاطبه الله سبحانه وتعالى أولا بقوله: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ ﴾ ليطمئنه أولاً على رزقه.

الآية الثانية: رجل ميسر فى الرزق لكنه يخشى الفقر من الأولاد، فالله طمأنه على

أن الأولاد لن يأخذوا من رزقه شيئا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾.

إذن.. فالتغيير هنا لازم وضرورى يخاطب كل حالة على حدة.

ولكن لماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾؟ وقال: ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ ولم يقل نحن نرزقكم جميعا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن تعرف أن لكل إنسان فى هذه الدنيا رزقا مستقلا عن الآخر، وهذا الرزق الذى قسمه الله سبحانه وتعالى لا يستطيع إنسان آخر أن يأخذ منه شيئا، ومن هنا فالمولود لا يأخذ من رزق أبيه شيئا، والوالد لا يأخذ من رزق ابنه شيئا، ولأعلم أننى حينما أرزق بمولود فإن الله سبحانه وتعالى لا يقسم رزقى بينى وبينه، أو عندما أقتل المولود لن أستأثر برزق أكبر، أبدا.

نأتى بعد ذلك إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم يقول ابن مريم: قال تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].

كون عيسى ابن مريم عليهما السلام يقول: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾؛ فهذه مفروغ منها، فنحن جميعا عباد الله مقهورون لإرادته، خاضعون له سبحانه وتعالى ولقضائه، ثم يقول عيسى ابن مريم: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ هذا طبعا ما يرجوه كل إنسان من الله سبحانه وتعالى الرحمة والمغفرة، ولكن هنا يتبع كلمة ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ لماذا لم يقل أنت الغفور الرحيم؟ هنا موقف غفران فلماذا العزة فى موقف الغفران، وليست المغفرة والرحمة، يقول بعض الناس: إن العبارة غير متمشية، وإن سياق الكلام كان يقتضى أن يقول عيسى ابن مريم: «إنك أنت الغفور الرحيم» ونحن نقول: إن كل من يثير هذا الكلام لا يفهم إعجاز القرآن، فقول ابن مريم: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يحمل المعنى نفسه فى فإنك أنت الغفور وإلا إن لم تكن غفورا فكيف تغفر، ولكن قوله: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ما سبب وضع ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هنا، هل الآية مختومة بما لا يتمشى مع العقل؟

الآية مختومة بعبارة من أبلغ ما يمكن، هنا فى مطلب الغفران، وهو يدعو الله أن يغفر لعباده، فيقول له: ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾، أى الذى لا يحاسبه أحد على ما يفعل، فلا أحد سيأتى ليقول لله لماذا غفرت لهؤلاء الناس الذين عصوا؟ لأنك أنت العزيز لا يحاسبه أحد، وليس فوقه قوة، فأنت ياربى إن أردت أنت تغفر لهم فهى مشيئة رحمتك، فإنك قادر، لماذا؟ لأنك أنت العزيز تستطيع أن تفعل ذلك من دون أن يسألك أحد الحكيم الذى يتم كل أمر منك بحكمة.

وهكذا نرى أن هذه الكلمة وضعت بحكمة زيادة فى الاستغفار، زيادة فى طلب

المغفرة يا رب اغفر لهم إنك أنت العزيز، لا يحاسبك أحد، ولا يعقب عليك وبالتالى فنحن نلوذ بشيئين: بأنك غفور رحيم، وبأنك عزيز حكيم، غفور تغفر الذنوب للعاصين، وعزيز تستطيع أن تغفر ما تشاء لمن تشاء بلا قيود، ولا يحاسبك أحد على ما تفعل، ولا يعتب عليك، ولا يسألك.. إنك تستطيع أن تغفر الذنوب مهما بلغت، هل وضح الآن معنى استخدام كلمة: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾؟!

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثانية، فى الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾ [النساء: ١١٠].

بعض الناس يتساءل: أليست الفاحشة والسوء هما ظلم الناس، إنهما الشىء نفسه فالذى يظلم نفسه يقودها إلى العذاب، والذى يفعل فاحشة يقود نفسه إلى العذاب، الشىء نفسه بل إن بعض الناس يقولون: إن العطف هنا غير واجب.

ولكننى أقول لهم: إن دقة التعبير، ودقة اللفظ من دقة القائل، واللّه سبحانه وتعالى يبين لنا إعجاز القرآن، ويقول لنا: إن هناك فارقا بين من يفعل سوءا أو فاحشة، ومن يظلم نفسه فما هو هذا الفارق؟

الذى يفعل سوءا أو فاحشة يفعلها ليحقق لذة عاجلة، نفس ضعيفة يغلبها الهوى وتخضع لبريق الدنيا، إنسان شرب الخمر، حقق لنفسه لذة الخمر، إنسان زنى، حقق لنفسه شهوة عاجلة، إنسان سرق مال غيره، حقق لنفسه شهوة عاجلة بالتمتع بهذا المال هذا هو الإنسان الذى يفعل السوء أو الفاحشة، أما الإنسان الذى ظلم نفسه فهو إنسان آخر إنه يرتكب إثما ولا يستفيد منه، لا يعطى نفسه شيئا فى الدنيا ولا فى الآخرة حينئذ يكون قد ظلم نفسه، بمعنى أنه لا أعطاها شيئا عاجلا، ولا نجّاها من عذاب الآخرة.

ومن الناس من يبيع دينه بدنياه، ومنهم من يبيع دينه بدنيا غيره، الذى يبيع دينه بدنياه يطلب العاجلة، أما من باع دينه بدنيا غيره، فقد خاب فى الأولى والآخرة، هو الذى ظلم نفسه، ولكن كيف يظلم الإنسان نفسه؟ فالإنسان حين يشهد زورا ليؤذى غيره لم يستفد شيئا فقد ظلم نفسه وارتكب إثم شهادة الزور بدون أن يحقق نفعا دنيويا إذا قبض ثمن شهادة الزور، يكون قد حقق نفعا دنيويا، ولكن الذى يظلم نفسه هو الذى يفعل ذلك ليرضى غيره، وتجد كثيرين فى الدنيا مثل هؤلاء.

إنسان يتهم إنسانا آخر بتهمة باطلة، لا يستفيد هو شيئا، ويرتكب الإثم، إذن هو ظلم نفسه، إنسان يكتب تقريرا كاذبا فى إنسان ليمنع ترقيته، أو يتطوع بحديث يختلقه عن شخص ليمنع الخير عنه أو يؤذيه، أو يشى بشخص كذبا ليدخله السجن أو يضعه فى الاعتقال، أو يتجسس على إنسان ليلفق له تهمة لمجرد الانتقام التافه، كل هؤلاء يظلمون

أنفسهم، إنهم يرتكبون الإثم فى الدنيا، ولا يجعلون له فائدة لا فى دنياهم، ولا فى آخرتهم، فكأن الذى ظلم نفسه هو الذى جعلها تدخل النار، هو الذى جعلها ترتكب الإثم، وفى الوقت نفسه لم يعطها شيئا على وجه الإطلاق، فهو ظالم لنفسه فى الدنيا ظالم لنفسه فى الآخرة، وهنا فرق بين التعبيرين، ومن هنا لا نقول أبدا عطف، ولا ألفاظ مترادفة بل دقة بالغة فى التعبير.

تعبير آخر فى القرآن الكريم، والقرآن الكريم ملىء بالتعبيرات الدقيقة، نجد أن اللّه سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة نور وظلام فى القرآن الكريم يقول: ﴿ نُورٌ ﴾ [المائدة: ١٥] ويقول: ﴿ ظُلُمَٰتٌ ﴾ [البقرة: ١٩]وظلمة، ولكنه لا يقول: أنوار أبدا. هناك نور وظلمة، وهناك نور وظلمات ولكن اللّه تعالى لا يستخدم كلمة: «أنوار». إنه يخرج الناس ﴿ مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وليس إلى الأنوار، لماذا؟ مع أن المنطقى أن يقال يخرج الناس من الظلمات إلى الأنوار نقول له: إنك لم تع الحقيقة جيدا، فى الدنيا هناك ظلمات كثيرة، ولكن ليس هناك أنوار هناك نور واحد هو نور اللّه سبحانه وتعالى، نور الحق، ولذلك لا يستخدم اللّه سبحانه وتعالى إلا كلمة نور، لأن النور هو نور الحق، ولا نور غيره.

لكل نفس هوى، الهوى هو ظلمة، وظلمة هذا غير ظلمة ذاك، الإنسان فى كثير من الأحيان هو عبد لأهوائه، والأهواء تختلف، ومن هنا يأتى الصراع فى الدنيا: القتل، السرقة، الاعتداء على الغير، إلى آخر ما تشهده من صراع الحياة فى كل مكان.

هذه ظلمات، كل فى ظلمة مختلفة تبع هوى صاحبها، هذا يقول كلاما، وهذا يقول كلاما آخر، هذا يريد أن يحقق شيئا، وذلك يريد أن يحقق شيئا آخر، كل إنسان يريد أن يأخذ ما لاحق له فيه، وكل إنسان يتحدث بما يعتقد أنه يحقق له هواه، إنسان يقول الشيوعية، وآخر يقول الرأسمالية، وثالث يقول الاشتراكية، هذه كلها كلمات وراءها هوى النفس، يعتقد الإنسان أنه يستطيع أن يحققه، أن يعلو فى الأرض.. أن يستبيح مال وحرمات غيره، أن يذل الناس بما أعطاه اللّه له من مركز، أو مال، أو سلطان.

إذن.. هى ظلمات كثيرة، كل إنسان منا له هواه، ولكن اللّه سبحانه وتعالى الحق، وهو الذى وضع النور، ليمكن الإنسان من أن يعيش عيشة راضية مطمئنة، هذا النهج للحياة رسمه اللّه سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم، أما كل ما نتخبط فيه بعيداً عن منهج اللّه فهو ظلمات، ومن هنا فإن اللّه سبحانه وتعالى يخرجنا من ظلمات كثيرة إلى نور واحد، هو نوره، هو طريقه، هو الحق.

اللّه سبحانه وتعالى حين يستخدم كلمة ﴿ ظُلُمَٰتٌ ﴾ يتحدث عن أهواء الناس، وهى مختلفة، وحين يستخدم كلمة: ﴿ نُورٌ ﴾ فهو يتحدث عن شىء واحد هو منهجه طريقه

دينه هو النور، وإذا اتفقنا على خير لا يمكن أن نختلف، لا يمكن أن تجد خلافا بين أناس فى قلوبهم الخير، ورغبتهم إلى الخير، وعملهم الخير، لا يمكن أن يختلفوا، ولا يمكن أن يكون الصراع والشقاء إلا على تحقيق أهواء النفس فى الدنيا، هل عرفت الحكمة من استخدام الله سبحانه وتعالى ﴿ ظُلُمَٰتٌ ﴾ بالجمع، وعدم استخدامه لكلمة أنوار، لأن هناك نورا واحدا هو نور الله سبحانه وتعالى.

هذه هى بعض الأمثلة البسيطة جدا، والقرآن ملىء بالإعجاز، الإعجاز والدقة فى التعبير واللفظ فى مكانه، فإذا تغير عن مكانه فإنما يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى معنى آخر إلى شىء آخر، ليس هناك مترادفات.. وليست هناك ألفاظ لا تتسم بالدقة وليس هناك كلمة فى غير موضعها، وإنما دقة متناهية فى التعبير، دقة متناهية فى البلاغة ولكن بعض المستشرقين الذين يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله، أو الذين يدرسون القرآن الكريم ليحاربوه يقولون: إن فى القرآن تناقضا، ويزيدون على ذلك بأن هذا التناقض طبيعى لأن قائل القرآن - كما يدّعون - هو محمد عليه السلام، بشر فإنه أحيانا ينسى، وأحيانا يمر عليه الزمن فيقول عكس ما قال، إلى آخر ما فى طبيعة البشر من عدم التذكر وخصوصا فى الفترة الطويلة، ويتحدثون عن التناقض فى القرآن الكريم، وأنا سأحدثكم عن التناقض الذى يدعونه.

obeikandl.com

خلق السماوات والأرض..
وزعمهم تناقض القرآن

السؤال الذى شغل بال المستشرقين، وكل من يريد أن يحارب هذا الدين، هو الادّعاء بأن هناك تناقضا فى القرآن الكريم، ولو بذل هؤلاء الناس لفهم القرآن الكريم الجهد نفسه الذى بذلوه فى محاولة إظهار ما أسموه بالتناقض فى القرآن الكريم لاستطاعوا أن يصلوا إلى عظمة القرآن. وإلى معجزة القرآن وإلى الدقة البالغة فى كلام الله سبحانه وتعالى، ولكن المستشرقين يحاولون أن يأخذوا من المعجزة، أهم ما فيها وهو أنها كلام الله سبحانه وتعالى وفى محاولاتهم هذه يلجأون إلى إظهار ما يُسمّونه «التناقضات»، أو يطلقون عليه اسم «الأشياء المتناقضة». فى القرآن الكريم، وأساس هذا الاتجاه هو أن المعجزة وهى القرآن كلام الله سبحانه وتعالى، وأن الله سبحانه وتعالى منزه عن الخطأ، منزه عن النسيان، منزه عن كل ما فى البشر من تناقض وبالتالى فإن وجود أى تناقض - ولو كان ظاهريا فى القرآن الكريم - يساعدهم على عدم الإيمان بالمعجزة، وعلى ادعاء أن هذا الكلام قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس منزلا من عند الله.

ولكن الإعجاز القرآنى، الذى هو موجود فى كل حرف من القرآن، إنما يظهر أمامهم بهذه الصورة ليجعلهم شهداء على المعجزة، وليجعلهم وهم يحاولون أن يحاربوا هذا الدين وأن يشوهوا هذا الكتاب الكريم يبينون معجزاته، ويظهرون ما خفى منها، إذ أنهم يثيرون مما يزعمونه أشياء تجعل العقل البشرى ينشط فى محاولة للرد عليهم، وبالتالى فإنه فى بحثه فى القرآن الكريم تتبين المعجزة، ويتبين أن هذا الكلام هو كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ولنبدأ الحدث من أوله، ماذا قال المستشرقون، قالوا: كلام بشر، هل هو كلام بشر فعلا؟ تعالوا نناقش ما أثاروه قضية قضية، وإن كان هذا يحتاج إلى كتاب مستقل.

جاءوا فى أول الأشياء بالخلق، خلق السماوات والأرض، شىء هو من صنع الله سبحانه وتعالى. حينما يتحدث عنه القرآن الكريم، فهو يتحدث عن شىء لا يعلمه إلا الله وبالتالى فإن أى تناقض ظاهرى فى هذه العملية مسألة تخدم قضيتهم فى محاربة هذا الدين ماذا قال المستشرقون؟ قالوا: إن القرآن الكريم قال فى عدة سور: إن الأرض والسماوات خلقتا فى ستة أيام، وفى سورة فصلت: أن أيام الخلق ثمانية وقالوا: إنها هفوة بشرية، ونسيان.

خرجوا من ذلك بأن قائل هذا الكلام هو محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا هو هدفهم تعالوا نناقش ماذا قال القرآن الكريم فى سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقال الله سبحانه وتعالى فى سورة يونس: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [يونس: ٣].

وفى سورة الفرقان: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

إذن.. أجمعت كل هذه الآيات على أن خلق السموات والأرض وما بينهما تَمّ فى ستة أيام، لا خلاف فى ذلك ولا جدال، فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى سورة فصلت؛ حيث فصل الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض يأتى فى الآية التى تقول: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت]. إذا أحصينا عدد الأيام فى السورة الكريمة، نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول: إنه خلق الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام، ثم استوى إلى السماء، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾.

إذا أحصينا أيام الخلق فى سورة «فصلت» نجد أنها ثمانية، يومان لخلق الأرض، وأربعة أيام قدر فيها رزقها وبارك فيها، أيام الخلق هذه ستة أيام، يومان آخران للسماوات. إذن فهى ثمانية أيام.

يأتى هنا المستشرقون ليقولوا: إن القرآن الكريم تناقض مع نفسه.. وأنه يقول فى عدة آيات أن خلق السماوات والأرض تم فى ستة أيام، ثم يأتى ليقول إن الخلق تم فى ثمانية أيام ويضيفون: إن هذه غفلة لأن قائله بشر.

ولو أننا دققنا فى الآية الكريمة التى يجادلون فيها لوجدنا بدايتها تختلف عن الآيات السابقة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ومن هنا بدأت الآية بمخاطبة الكافرين الذين يجعلون لله أندادا، ويجادلون فيه، أى إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخبرنا أن الذى يستخدم هذه الآية الكريمة فى التشكيك فى القرآن الكريم، هم أولئك الكافرون الذين يريدون أن ينشروا ويذيعوا الكفر بين الناس ويريدون أن يجعلوا لله أندادا، وهم فى الحالتين غير مؤمنين، يحاربون الله، ويحاربون دينه إن بداية هذه الآية معجزة؛ لأن الذين يجادلون فيها هم أولئك الذين يحاربون هذا الدين ويكفرون بالله ويحاولون التشكيك، فكون الله سبحانه وتعالى قال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾.

وقال: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ ﴾.

كأنما هو يخاطب هنا أولئك الذين سيأتون بعد قرون عديدة ليشككوا فى القرآن الكريم مستخدمين هذه الآية بالذات فى محاولة التشكيك.

ونحن نقول لهم: إن من يقول هذا الكلام، إما أن يكون متعمداً أو غافلاً عن مدلولات النص، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾.

إذن.. فالله سبحانه وتعالى يتحدث هنا عن إتمام خلق الأرض، هو يعطينا تفصيل الخلق فيقول: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾.

مادام الحديث تتمة للشىء نفسه الذى بدأ الكلام عنه، وهو الأرض، أى إن الله سبحانه وتعالى لم ينتقل إلى الحديث عن السماوات، وإنما هو يفصل كيفية خلق الأرض فهو يتم لنا زمن خلق الأرض، فهو يقول: إننى خلقت الأرض فى يومين، ثم أتممت خلقها فى أربعة أيام، إذن.. فمدة الخلق كلها بالنسبة للأرض هى أربعة أيام، وليست ستة.

ولنضرب مثلا يقرب ما نقوله للأذهان، إذا فرض أننى ذاهب إلى الإسكندرية، وأن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا، فأنا أقول: إن القطار سيتوقف فى مدينة طنطا بعد ساعة وفى الإسكندرية بعد ساعتين ونصف، فهل معنى ذلك أن المسافة بين القاهرة والإسكندرية ثلاث ساعات ونصف؟ أبدا، المسافة بين القاهرة والاسكندرية هى التى ذكرتها مؤخرا أما الساعة التى سيستغرقها القطار من القاهرة إلى طنطا فهذه جزء يدخل ضمن الساعتين والنصف، لماذا؟ لأن طنطا جزء من الطريق بين القاهرة والإسكندرية، والله سبحانه وتعالى يتحدث عن خلق الأرض، فهو يقول سبحانه وتعالى: إننى خلقت الأرض فى يومين، ثم أتممت عملية الخلق بأن جعلت فيها رواسى من فوقها، وباركت فيها وقدرت أقواتها فى أربعة أيام، كأن الأيام الأربعة هى كل الفترة التى استغرقتها عملية خلق الأرض منها يومان لخلق الأرض، ويومان لإتمام الخلق بأن جعل الله سبحانه وتعالى ﴿ رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ المدة كلها هى أربعة أيام، وليست ستة أيام، الله سبحانه وتعالى أراد أن يفسر لنا أنه خلق الأرض فى يومين ثم أتم خلقها بكل ما فيها من أقوات ورواسى بما فى ذلك خلق الأرض نفسها أربعة أيام، فكأن اليومين الأولين جزء من الأيام الأربعة التى استغرقها خلق الأرض، مثل بالضبط عندما تقول: إن القطار يستغرق من القاهرة إلى الإسكندرية ساعتين ونصف، وبين القاهرة وطنطا ساعة، المسافة كلها ساعتان ونصف ولكنك أردت أن تفصل الجزء من الكل، فذكرت بالتفسير جزءا من

الكل وليس معنى هذا، أن هذا الجزء إضافة للخلق، هذا جزء من الكل نستخدمه جميعا فى حياتنا اليومية كل يوم، أقول وضعت أساس العمارة فى ثلاثة أشهر، أتممت بناءها فى عام هل معنى ذلك أن العمارة استغرقت عاماً وثلاثة أشهر؟ لا، لقد أتممتها فى عام، ولكن جزء الأساس استغرق ثلاثة أشهر من عام البناء، هنا تحدثت بالتفصيل، والجزء من الكل ليس منفصلا، ولا زائدا عنه، تقول هذا المشروع تتم مرحلته الأولى فى عام، وينتهى فى عامين هل معناه أنه يستغرق ثلاثة أعوام؟ لا، فقط عامين ؛ لأن المرحلة الأولى هى جزء من الكل.

الله سبحانه وتعالى لم يفصل لنا فى الآيات السابقة مراحل الخلق ولكنه أتى به مجملاً إنما فى سورة «فصلت»، تحدث أولا عن خلق الأرض، خلق الأرض نفسها فى يومين ثم أتم الخلق بأن جعل فيها رواسى، وبارك فيها أقواتها فى أربعة أيام، هذه مرحلة الأرض استغرقت أربعة أيام، ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: ١١].

هنا انتقل الله سبحانه وتعالى من عملية خلق الأرض إلى خلق السماء، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾.

مرحلة جديدة بعد إتمام خلق الأرض، إذن فإتمام خلق الأرض استغرق أربعة أيام وخلق السماوات يومين، فأيام الخلق ستة، وهما من أيام الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

وهكذا نجد أن التناقض وهمى، وأن المستشرقين أرادوا أن يستغلوا عملية تفصيل الخلق التى أوردها الله فى سورة فصلت ليشككوا فى القرآن، وكان الله عليما قبل أن يبدأوا تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ [فصلت: ٩].

وبدأها بهذا الكلام ليقول لنا من هم الذين سيجادلون فى هذه الآية وينشرونها بالطريقة التى تهواها أنفسهم للإضلال عن سبيل الله.

الود والمعروف.. ودعوى التناقض

نأتى بعد ذلك إلى شىء آخر، قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ثم يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

يأتى المستشرقون، وكل من يحاول التشكيك فى هذا الدين يقول ما هذا؟ فى الآية الأولى اللّه سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نواد من حاد اللّه ورسوله، ولو كانوا آباءنا، وفى الآية الثانية فى سورة لقمان يقول: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

إذن.. فى الآية الأولى يقول لا توادهم، وفى الآية الثانية يقول وصاحبهما معروفا كيف يمكن أن يستقيم أمران مختلفان فى الشىء نفسه.

نقول: إنه ليس هناك أى اختلاف، ولكنك لا تفهم دقة تعبير القرآن الكريم، واللفظ فى القرآن الكريم.

ولنشرح ذلك بالتفصيل، المعروف يفعله الرجل لمن يحبه قلبه ومن لا يحب، ذلك أنك يمكن أن تسير فى الطريق فتجد إنسانا لا تعرفه، ولا تربطك به أى علاقة، ولكنك تجده فى مأزق فتسدى إليه معروفا لتنقذه، كأن يكون قد فقد حافظة نقوده مثلاً فتعطيه مبلغا من المال ليصل إلى منزله، أو تقدم له معونة. قد يكون جائعاً فتعطيه ثمن الطعام أنت هنا تفعل معروفا عسى اللّه أن يجزيك عنه، ولكن لا يربطك بالإنسان الآخر أى صلة، هذا هو المعروف، ولكن المودة مكانها القلب، هى فى القلب، أنت لا تود إلا من تحب، لا تريد أن تجلس أو تعيش إلا مع من تحب، المعروف لا يمس القلب، ولكن المودة تمس القلب القلب فى المودة يكون مع الشخص، والقلب فى المعروف لا يكون معه وإذا كان القلب مع إنسان غير مؤمن فهو قلب غير مؤمن، واللّه لا يجعل لك قلبين فى صدرك، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

إنما امتداد المعروف هو رضاء اللّه سبحانه وتعالى.

نأتى بعد ذلك إلى الآية الكريمة، اللّه تعالى يقول فى سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، هنا استخدم

اللّه سبحانه وتعالى كلمة الود، وكلمة الود هى التى تمس القلب، هنا لا تجد مثلا إنسانا مؤمنا يحب إنسانا يحارب اللّه ورسوله، حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم الحب من داخل القلب، من داخل النفس، ثم يأتى اللّه سبحانه وتعالى فى مسألة الوالدين وينهانا إن حاولا أن يمسا الإيمان فى قلوبنا أن نستخدم العنف ضدهما، أو نفعل أى شىء وهم فى هذه الحالة يكونون فى سن كبيرة ضعفاء، اقتربوا من نهاية العمر هؤلاء الذين قدموا لنا المعروف بأنهم قاموا بتربيتنا، وبالسهر علينا، يأمرنا اللّه سبحانه وتعالى أن نحتفظ لهم بالود إن كانوا مؤمنين، وبالحب الكبير، وإذا حاولوا أن يُدخلوا الشرك إلى قلوبنا أو حاولوا أن يجعلونا نشرك باللّه سبحانه وتعالى، يطالبنا بألاّ نطيعهما ولكن نصاحبهما فى الدنيا معروفا، أدب القرآن الكريم، نفعل ذلك إرضاء للّه سبحانه وتعالى، وإرضاء للجميل، ولكن القلب لا يودهم، المعروف لمن تحبه ومن لاتحبه، أما الود فلمن تحب فقط. أنت حين تسدى لهما معروفاً أى تعاملهما معاملة حسنة، ولكن ليس بقلبك لأنهما يحاولان أن يدفعاك للشرك تفعل ذلك إرضاء للّه سبحانه وتعالى الذى يأبى إلا أن يكون رحيما حتى مع من يعصاه والذى ينهانا عن أن نقابل الإحسان بالإساءة، والمعروف شىء، والود شىء آخر تماما قلب مع اللّه لا يدخل فيه كافر ولا من يحاول أن يشرك به.

أما المعروف الذى أسديه إلى والدىّ فأمرنى الله به، رحمة بهما، ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ إذ إن مناقشة الإيمان بين الابن ووالديه، لا تتم إلا إذا بلغ الابن مرتبة الرجولة وفى هذه الحالة يكون الأم والأب قد بلغا مرحلة الكهولة، وعلىّ أن أعاملهما بالمعروف ردًا للجميل وإرضاءً للّه سبحانه وتعالى الذى لا يقبل الجحود، لكن المعروف ليس بقلبى، وهذا مختلف تماما عن ذلك.

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة ثالثة، فالآيات التى ذكرت فى القرآن الكريم، نجد أن اللّه سبحانه وتعالى يوصى بالوالدين، ثم لا يذكر إلا الأم، مثلا فى سورة الأحقاف: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وفى سورة لقمان: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

نجد أن اللّه سبحانه وتعالى أوصى بالوالدين، ثم ذكر الأم وحدها بدون الأب، يأتى هنا بعض المستشرقين ويسألون: كيف أن اللّه سبحانه وتعالى لم يوص إلا بالأم، ثم ذكر فى أول الآية الأم والأب، وفى آخر الآية الأم، بدون أن يوصى بالأب، ثم اللّه سبحانه وتعالى فى هذه الآية يوصى من؟ هل هو يوصى الطفل وهو رضيع فى حالة الحمل والولادة وهل يفقه هذا الطفل شيئا، وهل يقرأ القرآن أو يعقل، هل يذكر الطفل شيئا عن هذه المرحلة، إذن.. من يخاطب القرآن؟ إذا كان يخاطب الطفل وهو رضيع، فهو

يخاطب إنسانا لا يعقل، وإذا كان يخاطبه بعد أن كبر فهو يخاطب إنسانا عن فترة لا يتذكرها ولا يعرفها؟!!

نقول له: إنك لم تفهم هذه الآية، فالله سبحانه وتعالى فى توصيته بالأم قد اختصها لأنها تقوم بالجزء غير المنظور فى حياة الابن أو غير المدرك عقلا، بمعنى أن الطفل وهو صغير فى الرضاعة، وفى الحمل والولادة، وحتى يبلغ ويعقل، الأم هى التى تقدم كل شىء هى التى تسهر ترضعه، وهى التى تحمل، وهى التى تلد، فإذا كبر الطفل وعقل من الذى يجده أمامه؟ أباه، إذا أراد شيئا فإن أباه هو الذى يحققه له، إذا أراد أن يشترى شيئا، لعبة جديدة، ملابس جديدة، إذا أراد مالا، كل هذا يقوم به الأب إذن فضل الأب ظاهر أمامه أما فضل الأم فهو مستتر، ولذلك جاءت التوصية بالأم أكثر من الأب، لماذا؟ لأن الطفل حينما يحقق له أبوه كل رغباته، ويحس بفضل أبيه عليه، ولكنه نادرا ما يقدر التعب الذى تعبته أمه، وهو يزيد أضعاف أضعاف مما يقدمه له أبوه، ومن هنا جاءت التوصية بالأم حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أمك ثم أمك ثم أمك، ثلاث مرات قال ثم أبوك[1]، ولكن ما هو الهدف من هذا التذكير إذا كان الإنسان لا يعقل هذه الفترة ولا يتذكرها من حياته مطلقا، الهدف هو أن يرى ذلك على غيره، ينظر إلى الأمهات ليرى كيف يتَعبْن، وكيف يعانين، ويقاسين، وكيف يسهرن على أطفالهن، وما يتحملن من مشقة، وعندما يراه على غيره يدرك أن هذا قد حدث له، ويحس به، ولذلك يرد الجميل فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بتعب الأم؛ لأن تعبها غير واضح فى عقل الابن، بينما ما يفعله الأب واضح وظاهر أمام الطفل، هذا هو الهدف من الآية الكريمة.

❁ ❁ ❁

(١) روى البخاري [٥٩٧١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أمك. قال: ثم من؟ قال: ثم أمك؟ قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك»، ومسلم [٢٥٤٨/ ١].

أتى أمر الله..
والفهم السقيم للمستشرقين

ويمضى المستشرقون فى الحديث عن القرآن الكريم فيقولون: إنه فى سورة النحل يقول القرآن: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

كيف يمكن أن يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ﴾ ثم يقول: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، ﴿أَتَىٰٓ﴾ فعل ماض؛ لأنه حدث، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ مستقبل، كيف يمضى هذا مع ذلك، نقول لهم: أنت حين تتحدث عن الله سبحانه وتعالى، فيجب أن تضع فى عقلك وذهنك وتفكيرك أن الله ليس كمثله شىء، أنت لك قوة، ولله قوة، ولكن هل قوتك كقوة الله سبحانه وتعالى؟ أنت لك قدرة ولله قدرة، ولكن هل قدرتك كقدرة الله سبحانه وتعالى؟ أنت تعيش فى الزمن، والله سبحانه وتعالى لا زمن عنده، إنه منزه عن الزمن ﴿أَتَىٰٓ﴾ هذه فى علم الله سبحانه وتعالى حدث، ومتى قال الله سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ﴾ فقد حدث وتم، وانتهى فى علم الله سبحانه وتعالى فى علم اليقين، ولكنّ الأشياء تخرج من علم الله سبحانه وتعالى إلى علم البشر، تخرج بكلمة: ﴿كُن﴾ الله سبحانه وتعالى حين يريد أن ينقل شيئا من علمه سبحانه وتعالى إلى علم الإنسان فإن كلمة: ﴿كُن﴾ تكون الأمر الذى يحمل التنفيذ.

الله سبحانه وتعالى عنده علم الساعة، وما دام قد تقرر، فليست هناك قوة فى هذه الدنيا تستطيع أن تمنع حدوثه، إنه آت لا محالة، فلا تطلبوه بكلمة: ﴿كُن﴾، وأنتم فى عجلة، لماذا؟!

لأن المؤمن الحقيقى إذا كان يخشى شيئا فإنه يخشى يوم الساعة، يوم الحساب، وإذا كان يخشى شيئا، يخشى عدل الله سبحانه وتعالى، الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

الصغيرة قبل الكبيرة، وإذا كان لا يترك شيئا صغيراً فماذا يفعل فى الكبائر والإنسان المؤمن يخاف يوم الحساب ويخشاه مهما كان إيمانه، إنه يرتعد من هول ذلك اليوم، أما الإنسان الكافر المتحدى فإنه هو الذى عن جهل، وعن عدم إدراك لا يعرف معنى الآخرة ولا معنى الحساب، ومن هنا فهو يستعجل، يريد أن يصل إلى الآخرة ولو علم ما فيها وما ينتظره فيها، لما ذكرها على لسانه، فحينما يقول الله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، أى إن الساعة تقررت، وانتهى أمرها، تم الأمر فلا تستعجلوه.. لا تتعجلوا يوم الحساب إنكم

تجهلون ما فيه من أهوال، إذن فهى بالنسبة للّه تم وانتهى، ولكنه بالنسبة لى فأنا مستقبل، فليس هناك أى تناقض بين استخدام الماضى والمستقبل ؛ لأن أتى أمر اللّه فى علم اللّه سبحانه وتعالى، ولكنه فى علمى أنا فى إدراكى أنا، وحتى يصل إلىّ أنا لا يزال مستقبلا حينما يقول اللّه كلمة: ﴿ كن ﴾، وينفخ فى الصور، وهل يملك إنسان أن يمنع اللّه سبحانه وتعالى من تنفيذ أمر قدّره، لا قدرة فوق قدرة اللّه، من الذى يمنع أمر اللّه أن يأتى مادام قد قال: ﴿ أَتَىٰٓ ﴾؟ أنت لا تملك مقومات الغد، ولكن الذى يملك مقومات الغد هو اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ أَتَىٰٓ ﴾، إذن.. فقد تم فعلا، ولكنه محجوب عنّى، لذلك قال تعالى: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾.

ننتقل بعد ذلك إلى نقطة أخرى، يقول اللّه سبحانه وتعالى فى سورة الفيل مخاطبا محمدا صلى اللّه عليه وسلم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل: ١].

بعض المستشرقين يقول: هذا قصور فى التعبير، ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، هل رأى محمد صلى اللّه عليه وسلم عام الفيل، لقد ولد فى عام الفيل، إنه لم يره، لو قال اللّه سبحانه وتعالى ألم تعلم، لقلنا علم عن غيره، فالعلم قد تحصل عليه أنت، وقد تحصل عليه عن طريق من علمه من غيرك من البشر، ولكن اللّه سبحانه وتعالى حين يقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، يقول المستشرقون فى هذا: إن التعبير قد خان محمدا عليه الصلاة والسلام، وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ مجافاة لحقيقة واقعة ثابتة.

ولكن الذى فات هؤلاء أن هذه قضية من قضايا الإيمان، ما يقوله اللّه سبحانه وتعالى للإنسان المؤمن، هو رؤيا صادقة، والقرآن هو كلام مُتعبَّد بتلاوته لا يتغير ولا يتبدل فعندما يقول اللّه: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، معناها: أن الرؤيا مستمرة لكل مؤمن بالله، ذلك لأن الرؤيا هنا رؤيا معجزة كبرى، واللّه يريدها أن تثبت فى عقولنا، كما ثبتت الرؤيا تماما لماذا؟ لأن قضية الإيمان الكبرى هنا هى أن اللّه سبحانه وتعالى فى معجزة قد خلق من الضعف قوة وهذه لا يستطيع أن يفعلها إلا اللّه.

أنا أستطيع أن أعين شخصا ضعيفا، على أن يحمل حملا ثقيلا، بأن أحمل عنه هذا الحمل، ولكنى لا أستطيع ولا أقدر أن أجعل هذا الرجل الضعيف قويا، بحيث يقوم هو بنفسه بحمل هذا الحمل الثقيل، ولكن اللّه سبحانه وتعالى وحده هو الذى يستطيع أن يخلق من هذا الضعيف الذى لا حول له ولا قوة، قويًا يهزم أقوى أقوياء العالم، وأقوى ملوك الدنيا، وهو إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة. هذه هى إحدى معجزات اللّه ومن هنا فإن الذى حدث فى عام الفيل أن طيرا أبابيل تمسك فى مناقيرها حجارة صغيرة جاءت وهزمت جيشا من الأفيال، أقوى جيش فى العالم، فى ذلك الوقت ولو أننى عقلا ومنطقا قلت لإنسان إن طيرا، أو مجموعة من العصافير قد هزمت فيلا لسخر منى، ذلك أن الفيل يستطيع أن يهلك مئات الطيور بدون أن يصاب بأذى، بل إن الطير يقف على ظهر الفيل،

فلا يحس الفيل به، فكيف تكون هذه تأتى وكونها تفنى هذا الجيش العظيم، فقد استخدم اللّه أضعف مخلوقاته، ليهزم خلقا من أقوى مخلوقاته، وهذه معجزة لا يمكن أن تتم إلا على يد اللّه سبحانه وتعالى.

بل إن بعض العلماء قد أخذ يتشكك فى هذه الناحية من كثرة ما تناولها المستشرقون فادّعى أو قال بعضهم: إن الذى فتك بجيش أبرهة، هو الأمراض والجراثيم التى سلطها اللّه على هذا الجيش، وأنا لا أتفق مع هذا المعنى، فعام الفيل حدث عند مولد الرسول صلى اللّه عليه وسلم، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بُعث فى الأربعين من عمره.. أى إنه فى ذلك الوقت كان هناك من هم فى سن الخامسة والخمسين، والستين والخامسة والستين والسبعين، ومن هم فوق ذلك، ممن رأوا عام الفيل، رَأىَ العين ولو أنه لم تأت هذه الطير ولو أنها لم تلق بحجارة من سجيل، ولو أنها لم تجعل هذا الجيش عَصْفاً مَأْكُولا، وهو ما يحتاج إلى أسابيع بالنسبة لأى جسم حيوانى، أو بشرى لكان هؤلاء الناس قد قاموا وقالوا: إن ما يقوله محمد غير صحيح، لقد شهدنا عام الفيل، ولم نر طيرا تأتى، ولم نرها تفنى أعظم جيش بأحجار صغيرة تحملها فى مناقيرها، ولم نر هذا الجيش يتحول إلى عصف مأكول فى لحظات؛ فلأن أحدا لم يستطع أن يكذب هذه الواقعة، وقت نزولها ممن رأوها دليل على أنها حدثت كما رويت فى القرآن الكريم، وليست محتاجة إلى تفسير؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى قادر على كل شىء، ومن هنا فإنه فى القضايا الإيمانية يكون كلام اللّه سبحانه وتعالى هو الرؤية الدائمة التى تتمثل أمامنا، والتى تتكرر باستمرار فى الحياة، فكم من ضعيف نصره اللّه على أقوى الأقوياء، وكم من قوى خذله اللّه وجعل نهايته على يد أضعف الضعفاء.

كلام اللّه سبحانه وتعالى بالنسبة للمؤمن، هو يقينى بمثابة الرؤية الدائمة، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، ولم يقل رأيت، أو علمت، ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ حاضر متجدد مستمر بحيث يحدث وسيحدث على مر السنين إلى يوم الساعة، إنه قضية الحق ينصر اللّه المظلوم، مهما كانت قوة الظالم، ومهما كان ضعف المظلوم، تلك قضية إيمانية كبرى يجب أن تراها فى قلبك إذا كنت مؤمنا، وتراها رؤية اليقين ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، هذا هو الإيمان، وهذه هى الحكمة فى استخدام كلمة: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، تجعل المؤمن يحس بقوة اللّه وقدرة اللّه فى كل ما يحدث، بالنسبة للحق والباطل، وقضايا الحق، وقضايا الباطل حتى قيام الساعة.

الشهادة الحق:
قول اللسان ما وقر فى القلب

نمضى لنقابل ما يقوله المستشرقون عن القرآن الكريم، التناقض الذى يدعون أنه موجود فيه وهم فى كل ما يثيرونه إظهار لإعجاز القرآن الكريم، قول الله سبحانه وتعالى فى سورة المنافقون: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١].

يقول المستشرقون: إن المنافقين قد شهدوا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وأن الله يعلم أن محمداً رسوله، ويعلم أيضاً أن المنافقين كاذبون، كيف يكون المنافقون «كاذبين» وهم شهدوا بما شهد به الله، كيف تكون الشهادتان متفقتين، فى أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك يكون المنافقون كاذبين، مع اتفاق ما شهدوا به مع علم الله، مع أن الكذب هو عدم مطابقة الكلام للواقع، فهل كلام المنافقين بأن محمدا رسول الله ليس مطابقا للواقع؟ هذا تناقض، هكذا يقول المستشرقون قبحهم الله.

نأتى بعد ذلك إلى معنى الآية الكريمة، هم - أى: المنافقون - قالوا: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾.

إذن.. فهى قضية صادقة، فكيف يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾؟ هل التكذيب هنا يقع على ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾؟ لا، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا صِدْق، التكذيب هنا يقع على ﴿ نَشْهَدُ ﴾ لأنهم قالوا: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾، فالتكذيب وارد على كلمة: ﴿ نَشْهَدُ ﴾ لأن معنى الشهادة أننا نقول بألسنتنا ما فى قلوبنا، والله يعلم أن ما فى قلوبهم يخالف ما يقولونه بألسنتهم إذن فقولهم: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ ﴾، كلمة ﴿ نَشْهَدُ ﴾، هم كاذبون فيها، كاذبون فى أمر الشهادة؛ لأنهم لا يشهدون، ولا يؤمنون أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءوا ليناقفوا بهذا الكلام، لا عن صدق، ولكن عن نفاق، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكذيب فيها، ولكن التكذيب منصب على كلمة «نشهد» فى ذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾.

وهنا فرق بين الشاهد والمشهود به، فرق بين تكذيب الشهادة، وبين تكذيب المشهود به المشهود به أنك رسول الله صحيح مائة فى المائة، ولكن شهادة المنافقين هى المكذبة، ومن هنا ترى دقة التعبير فى القرآن الكريم.

جهل المستشرقين بمعنى: «السؤال» أوقعهم فى الضلال

نأتى بعد ذلك إلى إعجاز آخر من إعجاز القرآن الكريم، إن اللّه يقول فى سورة الرحمن: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩].

ويقول فى سورة الصافات: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤].

فى الآية الأولى هناك نفى للسؤال، وفى الآية الثانية هناك إثبات للسؤال، كيف يكون ذلك، هنا يأتى المستشرقون ليقولوا هذا تناقض فى القرآن الكريم، كيف يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾.

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

هذا تناقض، محمد نسى.

نقول لهم: إنكم تقولون ذلك لأنكم جهلتم ماذا يكون السؤال، والسؤال نوعان؛ نوع نسأله لنعلم، ونوع نسأله ليكون المسئول شاهدا على نفسه، التلميذ حين يسأل أستاذه يسأله ليعلم، ليعرف العلم، ولكن حين يسأل الأستاذ تلميذه، هل يسأله ليتعلم أو ليعلم لا، فالأستاذ يعرف أضعاف أضعاف تلميذه.

ولكنه يسأل ليكون التلميذ شهيدا على نفسه، لا يستطيع أن يجادل، أو يقول: لقد ذاكرت وهو لم يقرأ حرفا. الأسئلة فى الامتحانات مثلاً لا تقوم وزارة التعليم بوضعها لأنها تجهل ما يعرفه الطلبة، فتريد أن تستزيد منهم علما، ولكن ليكون الطالب شاهدا على نفسه فلا يستطيع أن يجادل، ورقة الإجابة موجودة وهى شاهد على درجة الطالب، إن كان ممتازا أو ضعيفا، أو لا يعرف شيئا على الإطلاق، فالآية الكريمة: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾.

تنفى السؤال للمعرفة، واللّه أعلم بذنوبهم، اللّه سبحانه وتعالى يعلم، وبالتالى فهو غير محتاج لأن يسأل، وغير محتاج لأن يعرف منهم، لأنه أعلم منهم، ومن هنا لا سؤال لأن السائل أعلم من المسئول، فلا يكون السؤال للعلم، ولذلك يقول اللّه: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾.

أما فى الآية الثانية: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾، أى إنكم ستسألون لتقرروا الحقيقة والواقع فى الحساب، لا لتقولوا شيئا لا يعلمه اللّه، بل لتكونوا شهداء على أنفسكم وهذا

ما تفسره الآيات التى قبلها، والتى بعدها، إذن فأين هو التعارض، وأى تناقض هنا الذى زعمه المستشرقون فى القرآن، فالله سبحانه وتعالى يتحدث عن الكافرين والمكذبين، لذلك تقول السورة: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝﴾ [الصافات].

السؤال هنا ليس للعلم، ولكنهم مسئولون ليكونوا شهداء على أنفسهم، هذا الذى كنتم به تكذبون، هذا ما عبدتم من دون الله، والآن جاء وقت الحساب، لتكونوا شهداء على أنفسكم يوم القيامة. أين ما كنتم تعبدون من دون الله، يسألهم عما كانوا يعبدون من دون الله، ثم يقول الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات].

لماذا لا ينصركم أحد، لماذا لا تنصركم آلهتكم، السؤال هنا ليس للعلم، ولكن ليكونوا شهداء على أنفسهم، يحملون أوزار غيرهم.

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

وزر الضلال.. ووزر الإضلال

ننتقل بعد ذلك إلى آية أخرى، يقول المستشرقون: إن الله سبحانه وتعالى قال فى سورة الأنعام: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وفى سورة فاطر: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨].

وفى سورة النجم: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨].

ثم يأتى الله سبحانه وتعالى فى سورة العنكبوت ويقول: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

كيف يمكن أن يحدث ذلك، الله قضى بأنه لا تزر وازرة بأخرى ثم هنا يقول: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾، أى: أوزارا مع أوزارهم. أليس هذا تناقضا، لقد نسى محمد هكذا هم يريدون أن يقولوا، ولكنهم يجهلون إعجاز القرآن فى التعبير. نقول لهم: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨]. معناها: أن كل إنسان يحمل ذنبه، ولكن بعض الناس يوم القيامة سيحملون ذنوبا مع ذنوبهم، من هم؟ المضلون الذين يأتون فى الحياة الدنيا ليضلوا عن سبيل الله، الوِزْر فى الآية الأولى هو وزر الضلال، فإذا هذا ضال، وهذا ضال، وهذا ضال، كل منهم يحمل وِزْرَه على نفسه، فكل منهم يحمل ضلاله ووزره، فمن هنا فإنه لا يحمل ضال وِزْرَ ضالٍ آخر، ولكن هناك الضال، وهناك المضل، الضال هو من يضل الطريق يكفر بالله سبحانه وتعالى، هذا هو الضال، أما المضل فإنه لا يكتفى بأنه هو فى الضلالة، لكن يضل غيره، أى: يأتى إلى رجل مؤمن، ويحاول أن يفسد إيمانه، يأتى إلى إنسان يتطلع إلى الله يحاول أن يجعله يكفر، وربما ينجح فى ذلك، هؤلاء الناس «المضلون» لا يحملون أوزارهم فقط، ولكن لهم نصيب من كل وزر يرتكبه الذين أضلوهم، مصداقا للآية الكريمة فى سورة النحل: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل: ٢٥].

إذن.. من يضل الناس، ويعمل على نشر الكفر والإلحاد، والذين لا يكتفون أنهم هم فى الضلالة وحدهم ولكنهم يريدون أنْ يضلوا غيرهم لهم نصيب من كل وزر يقوم به أولئك الذين أضلوهم، فأنا مثلا حين آتى بإنسان لا يشرب الخمر، وأظل أغريه حتى أجعله يشرب الخمر، وأقدمها له، وأغريه بها، له وزر؛ لأنه عصى الله وشرب الخمر، ولى وزر لأننى أضللته وساعدته على المعصية، وظللت أزينها له حتى وقع فيها ومن هنا فإن الآية الأولى التى تقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾، يُقْصَدُ بها الضالون.

obeikandl.com

أما الآية الثانية التى تقول: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾.

يُقْصَدُ بها المضلون الذين يُضلون عن سبيل الله، فلهم نصيب من أوزارهم، ومن أوزار أولئك الذين أضلوهم، والذين اتجهوا بهم إلى الكفر والإثم والعصيان.

هذه بعض التناقضات التى يحاول المستشرقون أن ينالوا بها من القرآن الكريم، وأن يقولوا: إنه قول بشر، ولقد أوضحنا هذه التناقضات بشكل يظهر إعجاز القرآن فيها فلا تناقض فى القرآن أبداً وإنما بلاغة ودقة فى التعبير، تجعل اللفظ والمعنى منسجمين تماما، لا يبتعدان بعضهما عن البعض، ولا يؤديان إلا المعنى المقصود نفسه بالنسبة لمقتضيات الحال، على أن المضلين أو عدداً من المستشرقين لا يكتفون بذلك، لا يكتفون بالقول بأن هناك تناقضا، بل يقولون: إن هناك تناقضا بين قوانين الكون وبين القرآن الكريم، وفى هذا افتراء كبير، وهذا هو موضوع الصفحات القادمة التى سنتحدث فيها عن «القرآن، وقوانين الكون».

obeikandl.com